

إنّ إعادة فحص البديهيات ومجال المفهوم الضمني لمجتمع ما هي إحدى الآليات الأساسية للتحوّل في التفكير عن الواقع المعيش، ناهيك عن التحوّل في الواقع ذاته. من هذا المنطلق، يرمي هذا العدد من مجلة "جدل" إلى إعادة النظر النقديّة في بعض المسلمات حول العلاقة بين المُستعمر والمستعمر في السياق الفلسطينيّ العامّ، وعلى وجه التحديد سياق فلسطينيّ 48. إنّنا نسعى لفتح البديهيّة الأساسيّة لمنظومة العلاقات بين فلسطينيّ 48 والنظام الاستعماريّ الصهيونيّ الذي يقعون تحته منذ العام 1948. ونرى أنّ البديهيّة الأساسيّة تقول إنّه يلزم حدّاً أدنى من قبول النظام والتعامل معه بغية الاستمرار في العيش كمجتمع أو كجماعة ذات ملامح محدّدة. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه العلاقة الشرطيّة بين إمكانيّة العيش الماديّ الاجتماعيّ وحدّ أدنى من قبول النظام الاستعماريّ شكّلت "ال" المفصل الذي من خلاله جرت صياغة العلاقات، على مستوياتها وتركيباتها المتعدّدة، بين فلسطينيّ 48 كجماعة وبين أجهزة الدولة التي نفذت سياسات النظام الاستعماريّ في فلسطين. حتّى يومنا هذا، لم تُفحص هذه العلاقة الشرطيّة، بل إنّ كلّ مشروع سياسيّ أو اجتماعيّ أو ثقافيّ، ينطلق من قبول ضمنيّ لهذه العلاقة التي توقّر له نوعاً من "البوصلة" في حقل من التناقضات الاستعماريّة غير القابلة للحلّ، أبسطها استخدام النظام لهذه الفئة من المجتمع الفلسطينيّ وقبول جماعيّ من قبل المُستخدمين لعلاقات القوى تحت سقف النظام التي تمكّن النظام من استغلالها. إنّ هذه العلاقة الشرطيّة هي تعبير عن بنية استعماريّة شكّلت في خضمّ أحداث تاريخيّة، وهي ليست الإمكانيّة الوحيدة القائمة في الفضاء الاستعماريّ في فلسطين. من الممكن، بل قد يكون من الضروريّ، إعادة النظر في الإمكانيّات المختلفة المبطنّة والكامنة في طبيعة الصراع الاستعماريّ في فلسطين، والتي قد تفرز أشكالاً شتى من العلاقات والبنى، أفضلها الانعتاق من هذا النظام.

هنالك تيّار أساسيّ في الأدبيّات الفلسطينيّة وسَمّ هذه العلاقة بنوع من الصمود، أي إنّ مجرد البقاء هو عين الصمود. من جهة ثانية، هنالك من دعا إلى تحسين العلاقة الشرطيّة هذه عن طريق فتح باب المفاوضات حول كمّيّة ونوعيّة العيش الماديّ الاجتماعيّ في مقابل قبول النظام الاستعماريّ والدولة المنبثقة عنه ومن ثمّ خدمتهما. من جهة ثالثة، يبدو أنّ الوعي الجماعيّ غير المتلقّظ لدى الفلسطينيّين في 48 مرّ في عمليّة ترويض أدّت إلى ظهور سلوكيات هي أقرب إلى "النمور الفلسطينيّة في اليوم العاشر"، والتي لم يكتبها وريث زكريا تامر الفلسطينيّ بعد. نسعى في هذا العدد إلى إزالة الحجاب عن المفهوم الضمنيّ الفلسطينيّ والذي يمكن الفلسطينيّين من التعايش مع واقع النظام الاستعماريّ وقبوله. إنّ تشخيص حدود التواطؤ مع المستعمر بغية العيش، قد يمكننا من رؤية العديد من البدائل التي حجبها هذا التواطؤ تحت شعار ضرورة العيش. لا يمكن اختزال العيش الماديّ الاجتماعيّ إلى إمكانيّة واحدة، ففي كلّ سياق اجتماعيّ تاريخيّ معيش هنالك العديد من الإمكانيّات للعيش، والسياق الفلسطينيّ ليس باستثناء. لم يعد التواطؤ

مع النظام في مقابل "العيش" ضرورة، إن كان أصلاً كذلك، بل هو خيار تاريخي من قِبَل من يمارسه من الفلسطينيين تحت شعارات شتى. لقد تحولت هذه الشعارات، أو مسوغات التواطؤ، إلى بنية إيديولوجية تعتمد على نظام /لغة مولدة لأشكال مختلفة من التواطؤ ومعانيه. إنَّ ما بدأ كمسوّغ أولي قد يقبله الإنسان السوي، الرغبة في الحفاظ على الحياة، تحوّل بمرور الوقت إلى نوع محدّد من الحياة /العيش. إنَّ ما هو قائم اليوم، بمستوى البنية الإيديولوجية للتواطؤ، هو أنّ على الفلسطيني أن يرتقي بنفسه ليصبح قابلاً للتواطؤ مع النظام. هذا ممّا يشير إلى أننا في مرحلة تتميز بنوع من الفائص التواطؤي، حيث إنّ النظام لا يقبل كلّ من يريد أن يتواطأ معه. تاريخ إيديولوجيا التواطؤ هي جزء أساسي من بنية النظام الاستعماري في فلسطين، وتبعاً لذلك قد تشكل دراسة ونقد هذا التاريخ سعياً مثرياً في طرح البدائل له.

هذا العدد من "جدل" هو مساهمة متواضعة من القراءة والمساءلة النقدية لتاريخ التواطؤ وأشكاله المتعددة في السياق الفلسطيني، عامة، وفلسطيني 48 خاصة. تحاول مقالة إسماعيل ناشف الافتتاحية أن تمحور تفاصيل آليات عمل التواطؤ في سياق فلسطيني 48 عبر ثلاثة محاور والعلاقات بينها، وهذه المحاور هي: الحيز الجغرافي-الفضائي، سبل العيش، وحيز الوعي. يحاول الكاتب عبر تفصيل هذه المحاور تبيان التاريخي من الضروري في المعادلة الأساسية التي تحكم العلاقة بين النظام الاستعماري والفلسطينيين: قبول النظام الاستعماري كإمكانية وحيدة شرعية مقابل العيش المادي كأفراد وجماعات تحت إمرته.

تتميز مقالة سلمان ناظور بطرحها لمكونات الأفق الما بعدي، أي ما بعد سؤال الهوية المباشر. فإن كانت المرحلة السابقة تشكلت حول الإعلان عن الهوية الفلسطينية لنتيبتها في صراعها مع المستعمر. يرى الكاتب أننا أمام مرحلة تجاوزت الإعلان عما "أنا"، ويحدّد ثلاثة أسئلة كمحاور يجري من خلالها تعريف الأفق القادم: الأول حول فضاءات الثقافة، والثاني حول خصوصية هذه الثقافة، والثالث حول مركب الرواية التاريخية للجماعة الفلسطينية في هذه الثقافة.

يقوم أحمد إغبارية بمحاولة فحص للمفصل الزمني في عملية التواطؤ، حيث إنّ مقالته مبنية على تحديد الورطة عبر استخلاصه لنمط قبول تحقيب التاريخ الفلسطيني من خلال مفاصل صهيونية بالأساس، أهمّها نكبة 1948. إنّ الذات الفردية والجماعية التي تُفرغ من ماضيها، لا تستطيع أن تشكل فاعلاً في الحاضر. إنّ الغياب المشوّه للحضارة العربية الإسلامية، على اختلاف أشكالها وتحويراتها، هو من أهمّ ميزات فراغ الذات عند فلسطيني 48. في هذه الحالة، يصبح الاستهلاك المتواطئ طوق النجاة الوحيد.

أمّا حسني الخطيب شحادة، فيحاول أن يفحص التواطؤ في المشهد الفني لدى فلسطيني 48. إنّ مقولته الأساسية تشير إلى إشكالية المحاصرة التي تفرض على من يريد أن يتعلّم الفن التشكيلي في المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية. فالدراسة هناك تصبح نوعاً من السجن الذي يرى الفلسطيني ذاته عبره، والمسألة الأساسية تكون في أنّ هذا الفلسطيني لا يعبر عن ذاته إلا من خلال البوتقة الإسرائيلية.

يطرح علاء حليحل في مقالته مفصلاً أساسياً من مفاصل العمل الثقافي الجماعي لدى فلسطينيي 48، والذي من الممكن تعميمه على الثقافة الفلسطينية عامة. المفصل الأساسي هو حول المفهوم الضمني أنّ العمل الثقافي تابع للسياسي، وثانويته هذه تلزمه بأن يكون تطوعياً دون مقابل ماديّ عينيّ. هذا ممّا أدّى إلى تبعيّة ماديّة مباشرة للنظام الاستعماريّ، ويرى الكاتب أنّ الاكتفاء الذاتيّ، داخل الجماعة الفلسطينية، يحمل من الإمكانيّات العديدة لحلّ هذا الإشكال.

يأتي عادل سمارة من موقع آخر من الجسد الفلسطينيّ، وإن كان أفقه هو الجسد ككلّ. التجربة الاستعماريّة في فلسطين تتشكل من تحويل البيّة التحتيّة المنتجة إلى بيّة رعيّة تعتمد، في جُلّها، على التمويل الخارجيّ. إنّ العمل المنتج لا ينتج ماديّة العيش فقط، بل كذلك وعي العيش الحرّ وطرق ممارساته. إنّ فقدان العمل والتحوّل التامّ للربيع كتشكيّلة اجتماعيّة اقتصادية أدّى إلى نهوض مشروع التواطؤ الفلسطينيّ مع النظام الاستعماريّ تحت مسوّغات شتى.